اللغات القومية والعولمة

الأستاذ الدكتور الربعي بن سلامـــة
عميد كلية الآداب واللغات
بجامعة منتوري ـ قسنطينة ـ الجزائر

اللغـــات القومية والعولمة

يدور في هذه الأيام جدل كبير حول فكرة العولمة بصفة عامة، وحول العولمة واللغة بشكل خاص، حيث يرى البعض أن العولمة ما هي، في الواقع، إلا تعبير مهذب عن (الأمركة) لأن العالم مقبل على عصر أمريكي. تسود فيه المدنية الأمريكية وقيمها الثقافية، ومعها تسود اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة أقوى مدنية عرفها تاريخ الإنسانية. ولم يتوقف الأمر بالبعض عند التخوف من سيادة اللغة الإنجليزية على غيرها من اللغات، لأن هذا أمر واقع، وإنما تجاوزوه إلى التحذير من انسحاق معظم اللغات واندثارها تحت وطأة التقدم التكنولوجي والمعلوماتي الذي يؤدي إلى انتشار اللغة الانجليزية باستمرار وتسارع، لا تستطيع اللغات الأخرى مجاراته أو اللحاق به، وقد تصبح لغات مهمشة، وقد ينتهي بها الأمر إلى الخروج من حياة أهلها، وبخروجها تفقد الإنسانية تراثا هائلا من الثقافات لصالح أحادية اللغة. ولذلك نرى البعض يحاول أن يتصدى لهذه الظاهرة، ويجتهد للحيلولة دون "**عولمة اللغة**". ويظهر هذا بوضوح في العديد من المنتديات والتجمعات الدولية والوطنية، كمنظمة "**الفرانكوفونية**" و"**الاتحاد الأوروبي**" والمجامع اللغوية والمجالس الوطنية للمحافظة على اللغة القومية وترقيتها...

وإذا كنا لا نستطيع ـ في هذه المداخلة ـ أن نحيط بكل جوانب هذه القضية المعقدة فإننا سنحاول من خلال الإجابة عن بعض التساؤلات، أن نسهم في إرساء بعض العناصر الموضوعية التي تساعد لغتنا على الاستفادة من العولمة لتتطور، دون خوف من الانسحاق أو فقدان الهوية الوطنية والقومية، ودون أن نتشاءم من المستقبل الكالح الذي يصوره البعض لثقافات ولغات أمم العالم الثالث الذي ننتمي إليه .

ومن الأسئلة التي تمكننا الإجابة عنها من الإمساك ببعض عناصر هذه القضية :

1) ما هي العولمة ؟ وما علاقتها باللغة ؟

2) ما هي علاقة العولمة الحديثة باللغة القومية ؟

3) ما هو موقع اللغة العربية في العولمة ؟

قد تحتاج الإجابة عن كل واحد من هذه الأسئلة إلى بحث مستقل، ولكننا لا نزعم بأننا نستطيع القيام بذلك، وإنما نحاول في هذه المناسبة أن نلم بأهم العناصر التي تعرفنا بالمشكلة وببعض الحلول المقترحة لمواجهتها، وبالله التوفيق.

أولا : ما هي العولمة وما علاقتها باللغة ؟

1.1 ـ لا أذكر أنني عثرت فيما قرأته ـ خلال فترة التكوين الثانوي والجامعي ـ على كلمة "**العولمة**" التي شاعت وكثر استخدامها في هذه الأيام، وكنت آمل أن أعثر عليها وعلى تعريفها في المعاجم القديمة، ولكنني فوجئت ـ بعد أن استشرت لسان العرب والمعجم الوسيط وغيرهما ـ بانعدام هذه الصيغة "**عولمة**" في مادة "**علم**" .

وإذا كان قد صعب علي أن أعرف متى ظهرت صيغة "**فوعلة**" من "**علم**" فإن الذي لا أشك فيه هو أنها صيغة جديدة، يمكن أن تكون ترجمة لعبارة (Mondialisation) الفرنسية أو (Globalisation) وهي الصيغة المستخدمة في الفرنسية والإنجليزية معا، ولكنها أكثر استخداما في الإنجليزية، كما أخبرني بذلك أساتذة اللغة الإنجليزية.

ويبدو لي أن ترجمة عبارة Mondialisation "**العولمة**" أكثر توفيقا وأقرب إلى روح العربية من عبارة Globalisation التي كان يمكن أن تترجم بعبارة "**الكوكبة**" لما في الكوكبة من لبس قد يعني في العربية شيئا آخر.

ومفهوم هذه الصيغة، وإن كان ينصرف عند إطلاقه إلى الميادين الاقتصادية والمالية، أوسع من ذلك بكثير، لأنه يعني : محاولة إخضاع العالم، أو خضوعه التلقائي، لمنظومة موحدة من القيم المدنية والثقافية[1]. وعلى الرغم من أسبقية القيم المادية

(المدينة) على القيم الثقافية وسرعتها في الانضواء تحت لواء العولمة بسبب حاجة الناس إليها في جميع أنحاء العالم، فإن القيم الثقافية لا تلبث أن تتأثر بالقيم المدنية لتصبح أكثر مرونة وأكثر طواعية لمتطلبات العولمة، ولهذا فإننا حينما نتقبل أو نرغم على تقبل منتجات التكنولوجيا ووسائل اتصالاتها، من حيث هي وسائل مادية تمكننا من مسايرة شعوب العالم المتطور وتقربنا منها ، نجد أنفسنا مضطرين ـ شئنا أم أبينا ـ لابتلاع ما يصاحبها من تأثيرات ثقافية وإن كانت غريبة عن ثقافتنا أحيانا. وتأتي اللغة على رأس تلك القيم المدنية (المادية) والثقافية، لأنها الوعاء والحامل الذي لا يتصور وجود أي من تلك القيم بدونه.

وإذا كانت اللغة هي الوعاء الذي لا تستغني عنه القيم المادية والمعنوية فما هي علاقة اللغة بالعولمة ؟ أو ما مصير اللغات القومية في ظل العولمة ؟

2.1 ـ لا تعدو علاقة اللغة بالعولمة أن تكون انعكاسا لعلاقة أهلها بالعالم، فلو تصورنا العالم ـ كما يقول مالك بن نبي[2] عمارة كبيرة متعددة الطوابق وافترضنا أن شعوب العالم هم السكان المقيمون في كل دور من أدوار تلك العمارة، وأن كل شعب يؤدي لسكانها خدمة معينة، كأن نفترض أن دورا معينا يؤدي سكانه خدمات النظافة والمجاري، وسكان دور آخر يؤدون خدمات التصدير والاستيراد، وسكان دور ثالث يؤدون خدمات التعليم والصحة ... فإننا نستطيع أن نتصور بسهولة اللغة التي يتكلم بها كل طابق، كما نستطيع أن نتصور المصطلحات الشائعة أو المتداولة فيها، ولا يصعب علينا أن نتصور بعد ذلك، أن كل لغة تستمد قيمتها ومكانتها من نوعية الخدمة التي تؤديها لسكان العمارة، وأن الطابق الذي يؤدي أكبر الخدمات وأوسعها هو الطابق الذي ستسود لغته، ومعها تزداد هيمنته على سكان العمارة، كما أن الطابق الذي لا يؤدي أي خدمة لسكان العمارة يستغني الناس عن لغته؛ التي يتقلص مجال استخدامها في المكان ليقتصر على سكان ذلك الطابق، وقد يتقلص وينكمش مع الزمان فيستغنى عنها، حتى أهلها الذين سيضطرون إلى استخدام لغة أو لغات الطوابق التي تقدم لهم الخدمات الضرورية.

وبهذا المعنى سادت لغات العالم قديما، ومنها اللغة العربية التي سادت العالم القديم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وهذا ما تؤكده الوثائق القديمة وتؤيده الدراسات الحديثة أيضا.

وإذا كان من المعروف أن العالم القديم كان يحده المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات غربا، وتحده جزر أندونيسيا والفلبين شرقا فقد أوردت المصادر أن اللغة العربية كانت منتشرة وسائدة من أقصى الغرب (الأندلس) إلى أقصى الشرق.

أما عن أقصى الغرب فالعالم كله يعرف شكوى القس آلبارو القرطبي التي أطلقها متحسرا على ضياع اللغة اللاتينية ليس بين الأسبان المسلمين فقط وإنما بين النصارى، حيث قال : "... يا للحسرة إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم. وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها ... يا للألم لقد أنسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا..."[3].

وأما عن أقصى الشرق فقد أورد ابن بطوطة في رحلته أنه كان بأقصى شرق العالم المعروف آنذاك، حيث كان في واحدة من جزر (أرخبيل السولو) الواقعة بين الفلبين وأندونيسيا. وقد نزلها فوجد أهلها على غير دين الإسلام فامتنع عن حضور مجالسهم ومؤاكلتهم إلى أن استدعته ملكتهم (أردجا) التي تناولت دواة وقلما وكتبت له "**بسم الله الرحمن الرحيم**"[4] ثم حدثته في أمور أخرى. ولو كان القوم مسلمين لقلنا أن العربية قد انتشرت بينهم بسبب الإسلام، ولكنهم لم يكونوا كذلك، ومع ذلك كانت العربية معروفة لديهم.

وأما الدراسات الحديثة فنكتفي هنا، بالإشارة إلى ما أورده الأمير شكيب أرسلان عن ليفي بروفنسال وآنخل غونثالث بالنثيا، من عقود لنصارى طليطلة الذين ظلوا يكتبون معاملاتهم وينظمون حياتهم ويقيمون طقوسهم في الكنائس ويكتبون شواهد قبورهم باللغة العربية في طليطلة وما جاورها، حتى بعد أن رحل عنهم العرب بقرون طويلة[5]. ومن ذلك على سبيل المثال هذا العقد الذي حرر سنة 1237، ومنه :

"باعت الابطيشة الجليلة دونة شنجه التي على دير شنت باترو بالخزام أكرمها الله مع كونباتها الكائن أسماهم في هذا الكتاب، من دون مرتين بن باطروه دقشطره، جميع الميشون الذي علم في أصله للدير المذكور بربض الافرنج التي على مقربة العشابين وبداخل مدينة طليطلة حرسها الله... [إلى أن يقول] في العشر الأول من شهر فبرير سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف لتاريخ الصفر"[6].

أما عن ما تركته اللغة العربية من آثار في اللغات الأوروبية التي تسلمت لواء الحضارة، بعد أن تخلى عنه العرب والمسلمون، فهي أكثر وأشهر من أن يحاط بها في مثل هذه المناسبة، ويكفي أن نراجع أي فصل من فصول كتاب زغريد هونكه **"شمس العرب تسطع على الغرب"** وهي أكثر وضوحا في الفصل الأول المعنون بـــ :**"أسماء عربية لحاجات عربية"**[7].

ثانيـــا : العولمة الحديثة واللغات القومية

وإذا كانت اللغة العربية قد استفادت من اللغات السابقة، فإنها قد أفادت اللغات التي حملت لواء الحضارة بعدها وغذتها بزاد من المفاهيم والمصطلحات والمسميات التي سهلت عليها الانطلاق نحو المستقبل، وهذا أمر طبيعي وسنة من سنن التدافع والتداول التي تطور بموجبها العالم واستمرت بها مسيرة الحضارة الإنسانية.

ولكن السؤال المطروح اليوم، هو : هل العولمة المعاصرة شبيهة بالعولمات السابقة ؟ وهل ستخرج اللغات القومية منها أكثر ثراء وأكثر تنوعا من ذي قبل ؟.

يختلف الناس في الإجابة عن هذا السؤال اختلافات تتراوح بين التشاؤم المفرط والتفاؤل المفرط.

1.2 ـ حيث يذهب الفريق الذي يعطي الأولوية للاقتصاد إلى أن اللغات القومية في عصر ما بعد الحداثة ستعيش ظروفا صعبة، للغاية، وأن بعضها أو الكثير منها قد تفقد وجودها وينتهي أمرها إلى زوال.

ومن هؤلاء المنظر اللغوي الفرنسي (لوي جان كالفيه) الذي يرى أن اللغات في ظل العولمة ستصبح سلعة، بحيث يزداد الإقبال على اللغة كلما ازدادت فعاليتها في الحياة الاقتصادية، ويذهب في كتابه "سوق اللغات" إلى أن للغات سوقا كسوق العملات تماما، فلغة الدولار (الأنجلو أمريكية) لا تساويها أي لغة في العالم. وقد استوحى (كالفيه) فكرة كتابه "سوق اللغات" حينما كان في السنغال، حيث لاحظ أن الإذاعة هناك تقدم للمواطنين خدمات تمكنهم من إشهار سلعهم أو توجيه دعوات للحفلات أو تهاني للأفراح أو غيرها. ولكن سعر الإعلان يختلف باختلاف اللغة التي يكتب أو يذاع بها؛ فإذا كان الإعلان بلغة إفريقية يدفع صاحبه [20 عشرين فرنكا إفريقيا] وإن كان باللغة الفرنسية يدفع [200 مائتي فرنك إفريقي][8].

ويذهب، في موضع آخر، إلى أن بورصة اللغة الانجليزية ـ في العالم ـ في ارتفاع مستمر مقارنة باللغات الأخرى، ويورد لتوضيح ذلك الكيفية التي تطور بها استخدام اللغات الرسمية الكبرى في الجمعية العامة للأمم المتحدة، خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1992 و1999 فنجدها على النحو التالي: [9]

	1992	1999
الإنجليزية	45 %	%50
الفرنسية	19 %	%13
الإسبانية	%12	%10
العربية	%10	%9,5

ومن هذا الفريق أيضا المفكر الفرنسي (فرانسوا ليوطار) الذي يرى "أن العلوم والتيكنولوجيات الرائدة أصبحت خلال الأربعين سنة الأخيرة تهتم أكثر فأكثر باللغة : النظريات اللسانية، قضايا التواصل، السيبارنتيك، ومشاكل الترجمة، وتخزين المعلومات، بنوك المعلومات"[9].

وفي ظل هذه المعطيات "يذهب ليوطار إلى أنه سيتم التخلي عن كل ما لا يمكن ترجمته إلى كمية من المعلومات من جسم المعرفة الموجودة وأن وجهة البحوث الجديدة ستتوقف على إمكانية ترجمة نتائجها إلى لغة الكومبيوتر. كما أن المبدأ القديم الذي يربط تحصيل المعرفة بتدريب العقول... بات غير مجد، لأن المعرفة لم تعد غاية في ذاتها بل أصبح الهدف من ورائها هو "سلعنتها" أي تحويلها إلى بضاعة للتسويق"[10].

وفي عصر ما بعد الحداثة ستكون المعرفة المعلومانية "أهم عنصر في التنافس العالمي من أجل السلطة، ومن الممكن أن نتصور نشوب الحروب بين الدول من أجل السيطرة على المعلومات، كما نشبت في الماضي من أجل السيطرة على الأراضي"[11].

والمعلومات التي تقوم من أجلها الحروب بين الدول في عصر ما بعد الحداثة هي تلك المعلومات المعلوماتية (المحوسبة) وذلك لأن من يمتلك تلك المعلومات يكون قادرا، دون غيره على إصدار القرارات الصحيحة في الزمان المناسب والمكان المناسب، وبذلك فهو وحده الذي يملك سلطة إصدار القرار وإصدار الأوامر للآخرين، وكل هذا يتم عبر اللغة (المحوسبة) لأن :

"المعرفة في نظر ليوطار قضية كفاءة تتعدى التحديد والتطبيق البسيطين لمعيار الحقيقة لتشمل تحديد معايير الفعالية (المؤهلات التقنية)... فالمعرفة لا تجعل الفرد قادرا على تشكيل وإصدار ألفاظ دلالية dénotative "**جيدة**" فحسب بل ألفاظ آمرة prescriptive وتقييمية évaluative '**جيدة**' أيضا"[12].

وخلاصة نظرية ليوطار أن اللغة هي وعاء المعرفة، ولكن المعرفة المقصودة هنا، ليست هي معرفة الحقائق فقط، وإنما يجب أن تكون تلك المعرفة معلوماتية ويجب أن

تكون تطبيقية أو قابلة للتطبيق المفيد أو الذي يمكن حسابه كأي سلعة، واللغة التي تمتلك هذا النوع أو هذا المستوى من المعلومات والمعارف هي التي تصبح قادرة على اتخاذ القرارات وإصدار الأوامر.

وتذهب السيدة الأستاذة شراد إلى ما يشبه هذا في دراستها المعنونة بـــ "**العولمة وسياسة اللغات**" والتي ختمتها بخلاصة مفادها أن مصير اللغات لن يتجاوز ثلاثة سيناريوهات، وعلى رأسها السيناريو الاقتصادي، حيث تقول :

"إذا كان الاختيار اللغوي للكوكب سيتم وفقا للوزن الاقتصادي، فالمسألة بالنسبة للغة كبرى كالفرنسية ستكون محسومة مسبقا لصالح الإنجليزية، وبدقة أكثر لصالح الأنجلو أمريكية التي ستسود الكوكب وقد تصبح ـ وهو ما تخشاه بلدان الثقافات العريقة ـ اللغة الوحيدة، اللغة المتفوقة، نوعا من الاسبيرانطو. وهكذا سيتّخذ الناس في جميع بلدان العالم لغة جهوية هي اللغة الأم، ثم اللغة الأنجلو أمريكية التي ستكون استمرارا لسياسة التجانس والتنميط [التي كانت مطبقة على مستوى الدولة القومية] على مستوى عالمي"[13].

وهذا ما يتفق ما أوردته عن الكاتب الأمريكي (أينارها نجن) الذي كتب سنة 1972 قائلا : "حينما تنضج الأزمان سنتجاوز إطار الأمة لنصل إلى حكومة عالمية، وحينها تكون لنا لغة عالمية"[14].

وإذا كانت اللغات في السابق تفرضها الدول عن طريق القوانين، فإن لغة العولمة (الأنجلو أمريكية) لن تفرض بقانون، ولفهم الكيفية التي ستسود بها (الأنجلوأمريكية) تقول السيدة شراد : "يجب الرجوع إلى وظائف التواصل الداخلي المقابلة للتواصل الخارجي، فالمجتمع الذي لم يكن يعرف إلا نشاطا لغويا واحدا متجها نحو التواصل الداخلي، سيجد نفسه مضطرا للانحناء أمام متطلبات العلاقات المنفتحة أكثر فأكثر نحو الخارج؛ التي تفرضها العولمة، ودوائرها المالية (المصرفية) والتي تجبر المجتمعات على تبني لغة جديدة، لغة تكنولوجيتها واقتصادها .

"وهذه التبعية ستتم أولا عبر تقليص زمان ومكان استخدام اللغة الوطنية التي سوف لن تحتفظ إلا بوظيفة التواصل الداخلي لترك وظيفة التواصل الخارجي للأنجلوأمريكية التي ستكون لغة العلاقات مع العالم الخارجي. وهكذا تنحط قيمة اللغة الوطنية ويتقلص دورها لتنحصر في الاستعمالات المحلية البسيطة، وفي الوقت نفسه يتسع مجال اللغة العالمية مكانيا وزمانيا لتحتل المكانة الأولى في الاتصالات."[15]

ويذهب البعض في تشاؤمه إلى القول بأن العولمة ستؤدي إلى تهميش بعض اللغات وبعض الثقافات إلى درجة تشعر شعوبها بالإهانة والإذلال، وقد تعرض هويتها ووجودها للخطر مما قد يدفع بها إلى ردود أفعال تكون في شكل حروب لغوية، ويستدلون على ذلك بما وقع في دول الاتحاد اليوغوسلافي، وما يحدث في سيريلانكا فكل هذه النـــزاعات المسلحة سببها لغوي، كما تقول الأستاذة شراد، وهي في ذلك لم تتجاوز ما ذهب إليه لوي جان كالفيه في كتابه "حرب اللغات" La guerre des langues الذي صدر سنة 1987 عن منشورات Payot[16].

2.2 ـ أما الفريق الثاني، وهو فريق المتفائلين فيرى أن اللغات الوطنية يمكن أن تستفيد من التكنولوجيات الجديدة لتطور نفسها اقتداء بتجارب اللغات الأخرى، وهؤلاء هم دعاة التعددية اللغوية والثقافية التي تمثلها دول الاتحاد الأوروبي والتي أنشأت ما يعرف بـ"الميثاق الأوروبي للغات الجهوية ولغات الأقليات" الذي دخل حيز التطبيق في أول مارس سنة 1998[17] والذي بموجبه لن تكتفي الدول الأوروبية بالامتناع عن تهميش اللغات المحلية ولغات الأقليات، وإنما تتعهد بالسهر على حمايتها وترقيتها باعتبارها جزءا من الثقافة الإنسانية التي لا يجوز التفريط فيها[18].

ومن دعاة التعددية اللغوية والثقافية منظمة "الفرانكوفونية" التي خصصت مؤتمر قمتها المنعقد في مونكتون بكندا سنة 1999 لمناقشة فكرة العولمة، حيث أكدت على

وجوب تبني "سياسة التعددية اللغوية التي بموجبها ستدعم منظمة الفرانكوفونية اللغة الفرنسية واللغات الشريكة."[19]

ولكن السياسة الفرنسية لا تعدو في الواقع أن تكون سياسة مراوغة تهدف إلى حماية وتطوير اللغة الفرنسية. أما اللغات الشريكة فإن الحديث عنها لا يعدو أن يكون نوعا من التمويه، كما سنرى.

ثالثا : اللغة العربية والعولمة

1.3 ـ اللغة العربية، كما رأينا، واحدة من أكبر لغات العالم القديم والحديث أيضا، لكنها كغيرها من لغات العالم الثالث مهددة بالتقهقر والانكماش في ظل العولمة التي ستكون السيطرة فيها للغة المال والأعمال ولما تفرزه من تكنولوجيات. وهذا التهديد لا يأتي من الخارج فقط وإنما ينبع من الداخل أيضا. ويرى الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد أن الضعف الداخلي أخطر من الهجوم الخارجي، فأبناء اللغة العربية، كما قال : لا يحرصون على تعلمها ولا على استخدامها بشكل صحيح أو جميل، بل أكثر من هذا، هم يحرصون على تعليم أبنائهم منذ الصغر لغة أو لغات أجنبية يكون لها تأثير سلبي على اللغة الأم[20].

وفي الحقيقة ما حرص هؤلاء على تعليم أبنائهم واحدة من اللغات الأجنبية إلا لشعورهم بأنها لغة العصر ولغة العولمة التي لا يستطيعون فهم ما يجرى في العالم من حولهم إلا بإتقانها والتحكم في تقنياتها وتكنولوجياتها، وهم بذلك يقرون صراحة أو ضمنا بعجز لغتهم عن متابعة واستيعاب ما ينتجه العالم من وسائل للتحكم في الحياة، وبهذا الإقرار الضمني أو الصريح يسهمون أيضا في إضعاف لغتهم وتكريس عجزها.

والسؤال المطروح اليوم هو : كيف تستطيع اللغة العربية أن تتجنب أضرار العولمة ؟ أو ما هي الوسائل والكيفيات الواجب إتباعها للاستفادة من العولمة ؟

لا شك أن الإجابة عن هذين السؤالين ليست سهلة ولا ميسورة إلا لمن أراد التبسيط والتسطيح، ولكنها في الوقت نفسه ليست مستحيلة.

وأول ما يجب على اللغة العربية وعلى أهلها ـ في تقديري ـ هو أن يدرس الموقف دراسة موضوعية نتخلى فيها عن غرورنا وعن مخاوفنا معا، لأن غرورنا يدفعنا إلى التغني بأمجاد الماضي وتذكير الناس بأن العربية كانت في يوم ما لغة العالم الأولى، وفضلا عن هذا وذاك فهي لغة القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه، ومعه ستحفظ اللغة العربية... إلى غير هذا من المقولات التي تؤدي إلى الاسترخاء والاستسهال.

وإذا كان الغرور ضارا فإن الخوف لا يقل عنه ضررا، بل قد يكون ضرره قاتلا؛ فنحن إذا استولى علينا الخوف يمكن أن ننغلق على أنفسنا ونحول دون تطور لغتنا بدعوى المحافظة عليها وعلى هويتنا وحمايتهما من هجمة العولمة التي تريد مسخ كل شيء وابتلاع كل شيء. كما يمكن أن يفقدنا هذا الخوف ثقتنا في أنفسنا وفي لغتنا وهويتنا فنستسلم لليأس ونقبل الانسحاق والذوبان في لغة أو لغات أخرى بدعوى أنها أقدر على تمكيننا من مواكبة ما يجرى في العالم من تطورات.

2.3 ـ ولتجنب السقوط في بهرج الغرور وتفادي الاستسلام لليأس، يجب علينا أن نكون وسطيين، فنعمل دون هوادة على تطوير لغتنا وتمكينها من متابعة المستجدات، دون الاستغناء عن اللغات الأخرى.

وقد تكون التجربة الفرنسية مما يمكن الاستفادة منه في استغلال منجزات العولمة لتطوير لغتنا، حيث تحاول فرنسا أن تتصدى لزحف اللغة الأنجلو أمريكية بطرق مختلفة، يمكن إيجاز أهمها فيما يلي :

أ ـ العمل على إشعار الأوروبيين بالخطر الذي يتهدد لغاتهم وثقافاتهم إن هم لم يتصدوا للثقافة الأنجلو أمريكية. وفي هذا الإطار يدخل تشجيع فرنسا للميثاق الأوروبي للغات الجهوية ولغات الأقليات، وإن كانت لا تؤمن بمبادئ هذا الميثاق ولا تحرص

على تطبيقه على أراضيها وعلى لغاتها المحلية، بل ترى فيه مساسا بواحد من أهم المبادئ الجمهورية، وهو وحدة لغة الأمة.

ب ـ العمل على استغلال منظمة الفرانكوفونية لتقوية مكانة اللغة الفرنسية، وذلك بتوسيع مجال استخدامها من خلال إغراء مستعمراتها القديمة بوجوب إعطاء المكانة الأولى للفرنسية، وهي بهذا لا توسع المجال الجغرافي للفرنسية فقط، وإنما تستفيد أيضا من عبقرية أبناء المستعمرات في تطوير هذه اللغة وإثرائها بالمصطلحات الجديدة باستمرار، وهناك فرق بحث تزود القواميس الفرنسية، في كل سنة، بآلاف المصطلحات الجديدة التي ينتجها أبناء المستعمرات القديمة. ولهذا الغرض اقترحت قمة الفرانكوفونية السابعة المنعقدة في هانوي سنة 1997 م إنشاء صندوق لدعم هذا النوع من المشاريع التي تدخل في إطار التعاون شمال جنوب، وقدرت ميزانيته آنذاك بـ [41] واحد وأربعين مليون فرنك. وفي قمة الفرانكوفونية الثامنة بمونكتون أكد الرؤساء على أهمية هذا الصندوق وطالبوا برفع موارده المالية.[21]

ج ـ القيام بمجهودات متواصلة لضمان حضور اللغة الفرنسية في كل الأمكنة وخاصة على مستوى البرامج والتجهيزات المعلوماتية، حيث جاء في وثائق الحكومة الفرنسية أنه :

"لكي يتطور مجتمع المعلوماتية باللغة الفرنسية، فإنه من الضروري أن تكون لغتنا حاضرة على كل التجهيزات المعلوماتية وبرامج معالجة اللغة وأنظمة المساعدة الترجمية والتصحيح الآلي ... إلخ ولضمان استمرار تغذية الفرنسية بالمصطلحات المعلوماتية الجديدة فإن برنامج العمل الحكومي من أجل المجتمع المعلوماتي (PAGSI) كلف اللجنة العامة للمصطلحات بإعداد قوائم خاصة بمصطلحات لغة الانترنت، وهكذا نشرت قائمة المصطلحات القاعدية في الجريدة الرسمية يوم 16 مارس 1999م، وهناك قائمة ثانية بصدد الإعداد[22].

3.3 ـ ويبدو لي أن اللغة العربية بإمكانها أن تتطور وأن تحتل مكانة أكبر مما هي عليه الآن لو أحسن أبناؤها الاستفادة مما توفره العولمة من إمكانات لانتشارها وتقوية مكانتها، ويمكن أن نوجز بعض الإجراءات البسيطة التي تمكن العربية من النهوض بقوة فيما يلي :

أ ـ العربية، كما هو معروف، لغة العرب ولكنها لغة المسلمين أيضا؛ **فهي لغة** القرآن الكريم، وهي وسيلة المسلمين لفهم دينهم، ومن هذه الناحية يمكن أن تستفيد من دعم منظمة المؤتمر الإسلامي بطرق مختلفة :

1) عن طريق الإسهام في نشرها وتوسيع مجال استخدامها بين المسلمين، لأن اللغة كما يقول كالفيه : كلما كانت معروفة أكثر كلما اكتسبت قيمة أكبر، ويقارن الاقتصاد ديون هذه الظاهرة اللغوية بشبكة الهاتف وشبكة البريد الإلكتروني التي تزداد أهميتها وترتفع فوائدها كلما ارتفع عدد مستعمليها أو المشتركين فيها. وكذلك اللغة[23]، فإننا لو افترضنا وجود لغة قوية وقادرة على مسايرة التطورات التكنولوجية، كاللغة "**البروطانية**" أو "**الكورسية**" أو "**الكاتالانية**" فإننا لا نستطيع أن نتصورها وهي تحتل مكانة مرموقة في سوق اللغات، لسبب بسيط، وهو أن عدد مستعمليها قليل جدا ولا يشجع على الاستثمار لإنتاج أو تطوير ما يخص تلك اللغة من تقنيات جديدة، لأن عدد المشتركين فيها أو مستهلكيها (بلغة الاقتصاد) محدود للغاية.

ولكن لا يجب الاكتفاء بالعمل على التوسيع الجغرافي أو الكمي للغة لأنه، على أهميته كما قلنا، لا يكفي بمفرده للدلالة على مكانة اللغة، ولذلك يجب دعمه بعوامل أخرى.

2) الاستفادة من عبقرية أبناء الأمة الإسلامية من غير العرب، وهم في الغالب، مستعدون لخدمة اللغة العربية تطوعا ـ وقد أثبت التاريخ أن عددا كبيرا ممن خدموا العربية في السابق كانوا من غير العرب ـ وانطلاقا من أوطانهم التي تمتد من شرق المعمورة إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها يستطيعون ـ إن وجدوا من ينبههم ويرشدهم

ـ أن يزودوا اللغة العربية في كل سنة بآلاف المصطلحات الجديدة التي تمكنها من مسايرة التطور واكتساب القوة والمنعة التي تمكنها من الاستمرار في أداء دورها في خدمة القرآن الكريم والإسهام في مسار الحضارة الإنسانية بوجه عام.

ب ـ وإذا كان بإمكان المسلمين من غير العرب أن يسهموا في خدمة اللغة العربية والحفاظ على مكانتها تحت سماء العولمة فإن العبء الأكبر يجب أن يقع على عاتق أبنائها.

1) فمن واجبهم ـ كما يقول الأستاذ العلامة الدكتور ناصر الدين الأسد ـ أن يشعروا أبناءهم بأهمية لغتهم، وأن ينموا لديهم الإحساس بجماليتها حتى لا ينفروا من تعلمها إلى تعلم غيرها من اللغات الأجنبية، وإنما يتعلمونها أولا، ثم يتعلمون ما يتعلمونه من لغات أخرى ليجعلوه في خدمتها وتطويرها وإعلاء شأنها لتظل قوية مفيدة وجميلة ممتعة[24].

2) بإمكان العرب أن يستفيدوا من التكنولوجيات الجديدة لخدمة اللغة العربية وتقويتها، لأن هذه التكنولوجيات بقدر ما أثارت من المخاوف بأنها ستكون حكرا على اللغة الإنجليزية؛ التي سيطرت بالفعل ـ في أول الأمر ـ على مساحات المعلوماتية وعلى تكنولوجيات الاتصالات اللغوية، إلا أن الملاحظة كما يقول (لوي كالفيه) : "ترينا أن الأمور لم تسر تماما على النحو الذي رسمته تلك التخوفات المسبقة، صحيح أن اللغة الإنجليزية كانت أول لغة لـ (الواب) (WEB) لكن استعمالها تناقص ببطء، لأن اللغات المركزية وبعض اللغات "الصغيرة" وجدت مكانها على الأنترنت وقللت من حصة الإنجليزية؛ التي نزلت إلى ما دون 50% بينما كانت تستحوذ على كل شيء قبل عشرة أعوام"[25].

ولكن الاستفادة من التكنولوجيات الجديدة لا تتم من تلقاء نفسها، ولا تأتي هبة من أحد، وإنما تتطلب جهودا مضنية وقد تتطلب أموالا كثيرة أيضا.

أما الجهود المضنية ففي أبناء هذه الأمة من ذوي الكفاءات العالية رجال مخلصون ـ في أمريكا وفي غيرها من جميع أصقاع العالم مستعدون لدفع ضريبة العرق ولتقديم ما لديهم من خيرات لتطوير لغة أمتهم، ولكنهم قد يكونون بحاجة إلى شيء من الدعم المالي أو المادي الذي لا يمكن أن تنجز مثل هذه المهام الحضارية الكبرى بدونه.

وأما الأموال فلدى أمتنا، والحمد لله أكثر مما ينبغي، وإنما يحتاج استثمارها إلى نوع من التخطيط الذي يمكن من تنظيم استغلال الجهد والوقت لتحقيق النتائج المرجوة في الآجال المحددة، وهذا النوع من الجهد لا ينبغي أن يقتصر على الأفراد، وإن كانوا هم الأساس فيه. وإنما يجب أن يسند إلى مؤسسات يكون نشاطها مبرمجا ومستمرا، بحيث لا تحكمه الأهواء، ولا يتوقف بغياب الأفراد نتيجة ظرف طارئ يتعرض له البعض أو وفاة تخترم أعمار البعض الآخر.

ويمكن أن تكون هذه المؤسسات منتشرة على مستويات مختلفة، كأن ينشأ بعضها في المغرب العربي لتتبع ما يستجد من تقنيات في المنظومة الفرانكوفونية، وبعضها في منطقة المشرق لتتبع ما يستجد في المنظومة الأنجلوفونية، على أن تتوج هاتان المؤسستان بأكاديمية عربية جامعة للتكنولوجيات الجديدة، تختص في المقارنة بين نتائج البحوث المنجزة على مستوى كل من المؤسستين الإقليميتين للخروج بمصطلحات موحدة تنشر في "الجريدة الرسمية العربية" ليستعملها الباحثون في جميع أقطار العالم العربي.

وهذا الأمر كما قلنا، ليس هينا، خاصة إذا علمنا ـ كما يقول كالفيه أنه : "قد رصدت اعتمادات مهمة للقيام بأبحاث، على ما يبدو، هزيلة للسماح مثلا لـ "التيلدة" الإسبانية أو لـ"النبرات" الفرنسية بأخذ مكانها في المعلوماتية ومعالجة النصوص"[26].

فإذا كانت الأسبانية والفرنسية، وهما قريبتان من الإنجليزية، قد احتاجتا إلى مبالغ كبيرة لإدخال بعض من خصوصيتهما في لغة المعلوماتية الجديدة، فلا شك أن ما

تحتاجه العربية سيكون أكثر من ذلك، ولكن المسألة مسألة وجود وتتطلب الكثير من التضحيات التي يتوقف عليها مصيرنا ومصير لغتنا وهويتنا، وعلينا أن نقرر : أن نكون أو لا نكون.

وبالله التوفيق.

المراجع والهوامش

1) ينظر غليون، برهان وأمين، سمير. ثقافة العولمة وعولمة الثقافة . ط1. بيروت : دار الفكر المعاصر1999 م . ص ص 12ـ 55.

2) ينظر بن نبي، مالك . حديث في البناء الجديد. صيدا ـ بيروت : المكتبة العصرية . ص ص 145 ـ 147.

3) بالنثيا، آنخل جنثالث . تاريخ الفكر الأندلسي .ترجمة حسين مؤنس . ط1 . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، 1955م، ص ص 485، 486.

4) ابن بطوطة. رحلة ابن بطوطة. ط2. بيروت: مؤسسسة الرسالة، 1981م مج 2. ص ص 714، 715.

5) ينظر أرسلان، شكيب . الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية . بيروت : دار مكتبة الحياة . ج 1. ص ص 364 ـ 421.

6) نفسه . ص ص 391، 392

7) هونكه، زيغريد. شمس العرب تسطع على الغرب. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. ط 6. بيروت : دار الأفـاق الجديـدة، 1981 م. ص ص17 ـ 20 .

8) CALVET. Louis-Jean. Le marché aux Langues. éd : Plon, 2002. p.8.

9) ساروب، مادان. دليل تمهيدي إلى ما بعد البنياوية وما بعد الحداثة. ترجمة حميسي بوغرارة. ط1. مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات. جامعة منتوري، قسنطينة 2003م. ص155.

10) المصدر نفسه، ص ن.

11) نفسه . ص 152 .

12) نفسه . ص ص 156، 157 .

13) CHERRAD, Yasmina . « Mondialisation et politique des langues » In cahiers du Sladd . n°1 pp 13.14

14) Ibid . p 11

15) Ibid . pp 10.11

16) Ibid . pp 14 .15

17) Conférence internationale sur la charte européenne des langues régionales ou minoritaires. Edition du Conseil de l'Europe .1998 pp 5-7

18) Ibid . p 12

19) CHERRAD . Ibid . p 13

20) ورد هذا في مقابلة له بثتها قناة الجزيرة في (برنامج بلا حدود) مساء يوم الأربعاء 2004/04/28 في الساعة (20,30) الثامنة والنصف بتوقيت غرينتش.

21) Le Français et le plurilinguisme dans la société de l'information.(http://www.culture.gouv.fr/culture/dglf /

22) Ibid (http://www.culture.gouv.fr/culture/dglf

23) CALVET .Ibid .p 171

24) من مقابلة له بثتها قناة الجزيرة مساء يوم 2004/04/28 م.

25) CALVET .Ibid .pp 171.172

26) Ibid . p 171

والعبارة الأصلية هي :

« ... au tilde de l'espagnol ou aux accents du français »